ناثان الحـــكيم

للدكتور جواد علي

ناثان تاجر يهودي وهبه الله بالا غزيراً لما كثر أبناء جنسه ، ووهبه عقلا كان خير دليل له في الخروج من مآزق الأمور ، وفطنة كانت سلاحا فتا كا يستعمله في التغلب على خصومه .

وكان هذا اليهودي الذكي يعيش في أرض فلسطين في عهد السلطان صلاح الدين عيشة ناعمة يحسد عليها . وكان يرابي فيقرض الأمراء والسلاطين . وكان السلطان الأيوبي العظيم قد اقترض منه مبلغاً عظيما من المال ، لقاء فائض فاحش . وأراد السلطان كما تصوره الرواية الامتناع عن الدفع ومصادرة أموال اليهودي بطريقة لا يتمكن فيها هذا المرابي من الدفاع عن نفسه ومن إقامة الدعوى عليه .

فطلب منه ذات يوم أن يجيب عن موضوع طالما اهتم به وشغل باله به هو قضية الأديان ، وأي تلك الأديان أفضل ! وما هو الدين الحق من بين هذه الأديان . وكانت غاية السلطان من هذا السؤال هو إيقاع اليهودي في الفخ حتى إذا ما أجاب جواباً يناقض عقيدته وفضل ديانته على ديانة المسلمين أوقع به عقاباً صارما وجزاه جزاء كبيراً فيصادر أمواله ، ويصبح عندئذ في حل من الدفع .

أدرك ناثان ما كان يقصد السلطان من هذا السؤال ، فالتفت إليه وطلب منه أن يقص عليه قصة من القصص المعروفة هي قصة والد شفيق كان له ثلاثة أولاد يحبهم حباً جما ولا يميز بينهم أبداً ؛ وكان له خاتم ثمين ورثه عن أجداده ويريد المحافظة عليه بحيث يبقى في الأسرة ، فلا يخرج منها . ولما كان لا يريد التفريق بين أبنائه ولا التمييز فيما بين هؤلاء الثلاثة في الدرجة حار فيما يصنع ، أيعطي الخاتم للابن البكر فيزعج بذلك الأخوين ويعكر بينها صفو الأخوة وهو حريص جداً على أن تبقى رابطتها قوية فيما بين أبنائه ، أو يعطيه لشخص آخر من الأسرة ، وفي هذا العمل مخالفة لوصية الآباء ؟

وكان الرجل ذكياً ، تمكن بذكائه من إيجاد حل أرضى به أولاده الثلاثة . ذهب إلى صائغ قدير كلفه بأن يصنع له خاتمين يشبهان هذا الخاتم تماماً بحيث لا يمكن التفريق بينها وبين الخاتم الأصلي . وقد صنع الصائغ ما طلب منه وأجاد الصنعة حتى صعب على الصائغ نفسه تمييز الخواتم الثلاثة .

ولما توفي ذلك الوالد الشفيق تسلم كل واحد من أولاده الثلاثة خاتما . وبعد مضي أمد ادعى كل واحد منهم بأن خاتمه هو الخاتم الحقيقي ، خاتم الأسرة . وقد حاول كل واحد منهم البرهنة على أن ما قاله هو الصحيح .

فلما سمع صلاح الدين بهذه القصة استحسنها ، وامتدح ذكاء «ناثان» وقربه إليه ، وغدا منذ ذلك الحين من أقرب الناس إليه ، وهي قصة تمثل وجهة نظرة الإنسانيين الذين نظروا إلى الأديان بنظرة التسامح نوعاً ما . أما القصة نفسها ، فقد كانت معروفة في أوربا ، وقد أخذها هذا الأديب « لسنك » ، وسبكها في قالب « دراما » شعرية ، تمثل آراء الشاعر ومشاعره أحسن تمثيل . حتى لقد قال الفيلسوف الألماني « شليكل » « إن هذه الدراما تمثل نفسية لسنك فمن عرفها عرف لسنك كل المعرفة[1] » .

في سنة ١٧٥٢ للميلاد كان شاعرنا صاحب القصة في مدينة « ويتنبرك » « wittenberg » . وكان قد تفرغ لكتابة رسائله « Briefen » وفصول « الإنقاذ » « Rettung » بعد أن خنكته التجارب ، وبعد أن تخرج من مدرسة « فولتير » تلك التي أنشأها هذا الأديب الفرنسي العظيم في قلب العاصمة البروسية وفي قصرها . تعلم على هذا الأديب شيئاً كثيراً ودرس عليه أصول النقد الأدبي التي عرف بها تلك الأصول التي أثارت في نفس صاحبنا الميل لدراسة الآداب الغربية ولا سيما آداب الشعب الإيطالي سليل الرومان ، وآداب الشعوب الشرقية ، ولا سيما الأدب العربي وتاريخ المسلمين[2] .

وكان مما قرأه (لسنك) من آداب الايطاليين بعض مؤلفات الفيلسوف الايطالي « كاردانوس هيرونيموس » « Gardanus Hieronymus » « ١٥٠١ — ١٥٧٦ » وكان هذا الفيلسوف

(١) راجع Robertson. Nathan the wise, London. 1901. P: I.

(٢) The Encyclopaedia Britannick vol 13 14 ed P. 967.

الإيطالى انـكاثولبـكى حر النزعة بالنسبة إلى رجال وقته ، واسع التفـكير ، يعتنق مذهباً يعارض مذهبه ، هو مذهب « وحدة الوجود » يرى أن كل ما فى الطبيعة حى يجرى فيه ماء الحياة حتى المـادة الجامدة لا تخلو من الحياة . وأن الخالق فى الـكون جميعه والـكون جميعه فى الخالق بحيث لا نستطيع الفصل بين الاثنين . هذه هى الحقيقة ، حقيقة الله فى الـكون ، إلا أن قليلا من الناس من يدرك هذه الحقيقة ، وقليل من الناس من يحاول الإدراك وفهم الحقائق[١] .

كانت فى آرائه هذه جرأة بالطبع بالنسبة إلى العالم الذى عاش فيه ، جرأة خلقت له مئات من المشاكل والمصاعب فيما بعد . وكان يرى بالإضافة إلى كل هذا بأن الأديان واحدة لها أهداف واحدة هى النظم الأخلاقية وضبط حياة الإنسان ، فيجب أن تستخدم هذه النظم فى خدمة الغرض الذى من أجله نشأت ، وللمحافظة على الوحدة ، ولذلك حذر من الخوض فى المواضيع الدينية والمشاكل الدينية باللغة المحلية ، لأن هذا الجدل يدعو إلى تبلبل رأى الأمة وتفرق صفوفها . أما فيما عدا الجدل من عقيدة فيصح لـكل مواطن أن يعتنق ما يشاء من العقائد ، وله أن يدين بأى دين[٢] .

وبهذه الفـكرة كتب الفيلسوف الإيطالى أفكاره فى : « De Subtilitate » تلك المحاورة « ديالوك » « Dialog »[٣] الفلسفية التى ينبرى فيها رجال يمثلون أربعة أديان للدفاع عن عقائدهم وديانتهم التى يعتنقونها ، الديانة اليونانية الرومانية ، والديانة اليهودية ، والديانة المسيحية ، ثم الديانة الإسلامية . وقد حدث فى هـذه المحاورة كل محام بما كان يعتقده أصحاب ذلك الدين . فتحدث على لسان الوثنى ، وتحدث على لسان اليهودى ، وتحدث على لسان المسيحى ، وتحدث على لسان المسلم ، وذكر دليل كل واحد منهم . وهذه محاورة جريئة بالطبع ، أوقعت المؤلف فى مزالق الـكلام ، وهوجم على محاورته هذه هجوماً عنيفا اتهم بأنه قصر فى دفاعه عن عقيدة المسيحيين ، وأنه أظهر المحامى المسيحى بمظهر المحامى الضعيف الذى لا يملك حججاً قوية لأفحام خصمه ، وقد كان فى ذلك متعمدا لا محالة[١] .

تأثر (لسنك) بآراء هذا الفيلسوف . وانبرى على الرغم من تفاوت عهده عنه للدفاع عن آرائه فدافع عنه فى « Vindicate » دفاعا أوقعه فى مثل ما وقع فيه ذلك الـكاتب المفكر . ذكر بأن الفيلسوف لم يكن مقصراً فيما كتبه ولم يكن متعمداً إضعاف دليل المسيحيين . وكل ما فعله هو أنه صاغ دليل النصارى على لسانه . ولم يتمكن النصارى من إبراز أدلة أقوى من تلك الأدلة ، ولم يتمكن المسيحيون من إيراد حجج أقوى من تلك الحجج التى دونها كاردانوس[٢] فأضاف بهذا القول دليلا جديداً على تلك الأدلة التى كان يذكرها الناس فى إثبات مروق (لسنك) وزوغانه عن جادة الحق .

ولم تكن دراسة الفلسفة فى ذلك العهد من الدراسات التى يرتاح لها رجال الدين ، وكان لسنك وهو فى مكتبة « ولفنبتل » « wolfenbiittel » يقرأ كتب الفلسفة بنهم ويقبل عليها فى ساعات فراغه كل الإقبال . ولم يكتف بالمطالعة بل صار يخرج كتب الفلسفة إلى الأسواق ويشوق الناس إلى دراستها ، وكانت أحب فلسفة إليه هى فلسفة «رايمارس» « Reimarus » (١٦٩٤ ١٧٦٨ م)[٣] . وهذا الفيلسوف هو على رأس الفلاسفة الذين عرفوا باسم « Popularphilosophi » . وقد شاعت فلسفتهم فى القرن الثامن عشر على الأخص . وكانت تحاول تبسيط مبادىء فلسفتها وتقريبها من أذهان الناس للحصول على أكبر عدد ممكن من الأتباع[٤] . وكان هذا الفيلسوف من أولئك الفلاسفة الذين اعترفوا بوجود إله هو أساس هذا العالم وسببه . غير أنه كان كأكثر الفلاسفة « التوضيحيين » ينكر خوارق العادات ولا يؤمن بالمعجزات ، ويجحد تدخل الله فى شؤون العالم وفى شؤون الأفراد وكل ما فى الـكون من مخلوقات . وكان يدعو

(١) راجع عنه قاموس الفلسفة لشيد مادة « كاردانوس » وقد ترجمت بعض مؤلفاته إلى الانـكليزية واللغات الأخرى

(٢) راجع Schmidt. P. 92.

(٣) محاورة وقد كانت فنا من فنون الأدب عند اليونان راجع Hiryel. The Dialog 2. vol. 1895.

(١) Roberstson P. 10.

(٢) Robertson Introduction

(٣) Robertson Intro . وقد أخرج لسنك بعض مؤلفاته Schmidt, P. 546. Straus 1862.

(٤) راجع Schmidt. P, 500

إلى « الديانة الطبيعية العقلية » ويهاجم أسفار التوراة والأناجيل وينتقدها انتقاداً مرا ، لذلك تعرض بالطبع إلى حملات رجال الدين عليه وإلى نقد قوى مرير( ) .

تعرض لسنك إلى نقد رجال الدين ، إلى نقد « كوتزة » « Goetze » على الأخص فكانت بينهما مهاترات علمية تدخل فيها أناس من عشاق الجدل الفلسفي الديني ، وقد تمكن « كوتزة » هذا من إثارة مجالس الأقاليم على لسنك ، فأصدرت تلك المجالس أمراً إلى دوائر الرقابة تطلب فيه ألا يسمح للسنك بنشر أي شيء إلا بإذن من الحكومة ، فكان في هذا القرار توفيق لرجال الدين .

وكان (لسنك) قد اطلع على آراء فيلسوف إيطالي آخر هو « بوكاجيو » « Boccoccio » (١٣١٣ — ١٣٧٥ م) الكاتب الإيطالي الفيلسوف .

وقد وجه هذا العبقري كزميليه دانتي « Dante » (١٢٦٥ ١٣٢١ م) و « بتركا » « Petrarka » أنظار قومه نحو مثل جديدة ، نحو المثل الإنسانية التي تدعو إلى التسامح في مقابل تعصب الكنيسة وتمسكها بآرائها الدينية . وقد حث قومه على دراسة الشعر واللغة والفلسفة ، وقد مهد هو وزملاؤه بذلك الطريق لما سمي فيما بعد باسم : « عصر النهضة والأحياء » « Renaissance »(٢) .

واتصل لسنك عن طريق الترجمة بهؤلاء فقرأ ديكامرون Decamaron لبوكاجيو ، وكان هذا الأثر الأدبي المهم قد ترجم إلى الألمانية في القرن الخامس عشر للميلاد وطبع في « أوكسبرك سنة ١٤٨٩ للميلاد » . ومنه استل صاحبنا مادة « ناثان الحكيم » . أخذ من « دكامرون » عناصر القصة الأولى ، وأضاف إليها بعض العناصر الجديدة التي كانت شائعة عند الأوربيين في ذلك الوقت . ولعل بوكاجيو نفسه كان قد أخذ قصصه من القصص الأوربية القديمة التي كانت شائعة قبل ذلك العهد في أسبانيا حيث عاشت الأديان الثلاثة كان الناس يتحدثون عن ملك متسامح حكيم وعن قصة الخاتم ، وفي أوربا تحدث الناس عن السلطان صلاح الدين وعن تساهله بالنسبة للمسيحيين واليهود .

وقد تطورت هذه القصة وأمثالها بمرور الزمن فنصت فيما بعد على أن الخاتم الحقيقي كان يعرف من بين الخواتم الأخرى بما كان يظهر منه من الأعمال الخارقة والمعجزات . وكان هذا دليلا على أنه هو الأصل وهو خاتم المسيحيين(١) . كما تطورت صورة ناثان إلى أن جعل لسنك صورة هذا الشخص تنطبق على صورة صديقه الفيلسوف اليهودي « موسى مندلسن Moses Mendelssohn » (١٧٢٩ — ١٧٨٦ م) والكاتب الذي عاش في مدينة برلين . وكان شخصية فذة معروفة في أوساط تلك المدينة حتى تمكن بفضل منزلته من تخفيف حدة البروسيين بالنسبة لليهود(٢) .

وقد ساعد « مندلسن » صاحبنا كثيراً وسعى عند تاجر من تجار مدينة « هامبرك » حتى أقرضه مالا طبع به بعض كتبه . وتأثر بكثير من آراء مندلسن ؛ فأخذ بأفكاره بالنسبة إلى الفلسفة اللاهوتية والأديان ولا شك في أن لتلك القصص الدينية التي كان يسمعها من « موسى مندلسن » دخلا في صقل عقلية لسنك وفي قصة « ناثان الحكيم » .

واستعان لسنك بعنصر آخر هو التاريخ الشرقي ذاته .

وكانت أوربا في هذا العهد ولا سيما فرنسا قد تذوقت الأدب الشرقي وأقبلت عليه ، وصار الأدباء يبحثون بين ثنايا القصص الشرقي لينسجوا منه نسيجاً جديداً . وكان فولتير الذي تعرف عليه لسنك في برلين ، والذي اتصل به اتصالا وثيقاً ، في طليعة هؤلاء الكتاب الذين استعانوا بالخيال الشرقي وبتاريخ الشرق . ولفولتير هذا مسرحية زيير « Zaire » وكانت هذه المسرحية(٣) قد اكتسبت شهرة واسعة ومثلت في برلين ، وكان لسنك بالطبع ممن حضر التمثيل ودرس الرواية وله « دراما محمد Mahamet » .

تأثر لسنك في « ناثان الحكيم » بقصة « Zaire » كثيرا

(١) Scharer Article Lessing
(٢) Vorlander History of Philosophy P, 205.

(١) Robertson. P, 30
(٢) The Encyclopaedia Britanica Art Lessing.
(٣) راجع معجم لاروس مادة « Zaire »
Robertson Nathan London 1912 University Cembridge,

حتى إننا لنجد أوجه التشابه ظاهرة فى كثير من المواضع ، كما تأثر بآراء فولتير وبأفكاره السياسية ، حتى أماكن النقد تكاد تكون واحدة . وقد استعار منه حتى المصطلحات التى كان قد تخصص بها فترجمها إلى الألمانية .

صور « صلاح الدين الأيوبى » فى هذه الرواية وفى الروايات الأوربية الأخرى بصورة الملك الفيلسوف ، بصورة فيلسوف حديث يحمل آراء القرن الثامن عشر ويبشر بها بين الناس . فيدعو إلى « المذهب الإنسانى » الذى استولى على أفئدة الناس فى ذلك الوقت . ويحث الناس على اتباع الفلسفة التى كان يدعو إليها لسنك وأمثاله . فهو ملك شرقى وفيلسوف غربى فى آن واحد[1] .

ولم يكن لسنك من المستشرقين كما أنه لم يكن من المؤرخين ، ومعلوماته التاريخية عن الشرق معلومات عامة مأخوذة من هنا ومن هناك . أخذ حياة صلاح الدين من كتاب « تاريخ صلاح الدين سلطان مصر وسوريا » للأب دى مارين «Abbé Marin» الذى طبع سنة ١٧٥٨ م . كما أخذ معلوماته عن تاريخ الخلفاء من كتاب « تاريخ العرب فى أيام الخلفاء » للأب «دى ماربنى» « Abbé demarigny » وقد طبع هذا الكتاب بالفرنسية عام ١٧٥٠ للميلاد واستفاد من كتاب «التاريخ العام» « Universal History » الذى طبع بمدينة لندن عام ١٧٥٩[1] .

وحاول لسنك الرجوع إلى المصادر الأولى، إلا أننا نشك فى قدرة هذا الشاعر على ذلك لأنه لم يكن يعرف العربية ، على أنه كان يستعين بالكتب المترجمة عن العربية . مثل ترجمات «Abbertus schulteus» وترجمة جلان (١٧٠٤ — ١٧٠٨) لألف ليلة وليلة[2] والترجمات الأخرى ، وكان يستعين بالمستشرقين أنفسهم أمثال المستشرق ريسكى « Reiske » الشهير . ومع ذلك فإن قصة « ناثان الحكيم » لا تمثل التاريخ كما تمثل الأفكار الإنسانية والمبادىء الفلسفية التى تمثل نفسية هذا الفيلسوف .

(بغداد) **جواد على**

(١) Robertson . Introduction . P.30

(١) Lessing . Eatwurf . Robertson . Intro

(٢) نفس المصدر .

اقرأ : دراسات نقدية عن ثلاثين كاتباً وشاعراً وقصاصاً فى مصر والبلاد العربية .

مع دراسات عامة عن :

وظيفة النقد . النقد والفن . طريقة الأداء فى الفن . الصور والظلال فى الفن . الوحى فى الشعر . النفس الإنسانية فى الشعر العربى . الطبيعة فى الشعر العربى . نفحات من فارس . بين الشيرازى والخيام . وذلك فى كتاب :

كتب وشخصيات

بقلم

الأستاذ سيد قطب

يصدر قريباً . يطلب من مجلة الرسالة والمكاتب الشهيرة

إدارة البلديات العامة — تنظيم

تقبل العطاءات بمجلس قنا البلدى حتى ظهر يوم ٣٠ يولية سنة ١٩٤٦ عن توريد ٣٢٠ أردباً من الشعير معدل ٥و٢٣ قيراطاً و١٤٠ حملا من التبن الأبيض ويمكن الاطلاع على الشروط بالمجلس ويجب أن يرفق كل عطاء بتأمين ابتدائى قدره ٢ ٪ من قيمته .

٥٥٦٢